

قراءة في كتاب عبد الله العروي (مجمل تاريخ المغرب)

Book Review of Abdallah Laroui's (A History of the Maghrib)

الدكتورة/ لطيفة صفوي

دكتوراه في الآداب، جامعة ابن زهر، أغادير، المملكة المغربية

Email: ssafoui@yahoo.fr

ملخص

يقدم هذا البحث قراءة تحليلية لكتاب "مجمل تاريخ المغرب" للدكتور عبد الله العروي. تكمن أهمية الكتاب في احتضانه لمشروع فكري ضخم يروم إعادة قراءة تاريخ الدول العربية لشمال إفريقيا، المغرب وتونس والجزائر، على ضوء منهج تاريخي حديث يركز على السمات المشتركة بين هذه البلدان ويوضح بجلاء ضرورة كتابة تاريخ مشترك على اعتبار أن هذه الدول شهدت نفس الأحداث وتم إخضاعها للاستعمار الغربي بطرق متماثلة.

لقرون خلت، كان تاريخ المنطقة يدون على أيدي الغزاة الأوروبيين أو المؤرخين المشاركة مما ترك ستارا كثيفا من الغموض يلف كثيرا من جوانبه. فالأوروبيون أتوا بفرضيات أملاها عليهم تكوينهم الأكاديمي الذي جعل من أخبار السلاطين ورجال السياسة والاقتصاد المعين الذي استقوا منه معلوماتهم عن مغرب القرن التاسع عشر ومغرب الحقب السالفة. فضلا عن أن المنهج الوضعي الذي غلب على هذه الكتابات التاريخية أغفل كثيرا من الحقائق التي يستحيل الوصول إليها دون اعتماد مقارنة عبر- تخصصاتية منفتحة على كل العلوم. كتابة تاريخ موحد لشعوب المنطقة يملية وعي تاريخي وسياسي لا يزال مفتقدا في نظر الكاتب وأغلب الكتابات التاريخية، الاستعمارية منها والوطنية، مازالت قاصرة عن الإحاطة بهذه الضرورة التاريخية والسياسية والمعرفية. يقدم الكاتب منهج التاريخانية كبديل للكتابات التاريخية السائدة حتى زمن تدوين الكتاب وهو منهج يركز على البنية والنسق لاستجلاء معالم التاريخ المسكوت عنه ولبناء مشروع حضاري يوحد دول المنطقة ويعد بمستقبل أفضل لشعوبها.

الكلمات المفتاحية: تاريخ، تاريخانية، دول شمال إفريقيا، الاستعمار، الوعي التاريخي، البنية

Book Review of Abdallah Laroui's (A History of the Maghrib)

Abstract

This paper provides a descriptive, analytical reading of Abdallah Al-Aroui's book *مجلد تاريخ المغرب [History of the Maghrib : An Interpretive Essay](1970)*. The book subscribes to a colossal intellectual project designed to re-read the history of the Arab countries of North Africa, namely, Morocco, Tunisia, and Algeria. The book articulates a need to write a common history of these countries as they have been subjected to similar colonial practices. For centuries, the history of the area has been written by European invaders or historians from the Middle East, who left a number of issues totally ignored. Europeans developed hypotheses promoted by their academic positivist training, which laid focus on documents about sultans, politicians and traders to write the history of the Maghrib in the nineteenth-century and long before. The writer argues for an interdisciplinary approach to history that would compensate for this loss. Writing a unified history of the peoples of the region is impelled by a historical consciousness that, following the writer, is deficient. Most historical writings about the region have so far failed to cater for this need. The writer presents historicism as an alternative mode through which the history of these North-African countries can be revisited and re-written. This is an approach that focuses on structures and systems rather than persons and dynasties. The overall aim is to build a brighter future for the populations of these countries.

Keywords: History, the Maghrib, North Africa, historicism, structural, unified.

مدخل:

يصعب على قارئ عبد الله العروي إدراجه في خانة معينة من المفكرين. هل هو فيلسوف؟ هل هو مؤرخ؟ هل هو لغوي؟ هل هو مثقف ثقافة أجنبية، أم هو فقيه عربي، مع التنبيه إلى أن كلمة فقيه هنا تحمل سمات الفقه في العصور الذهبية للحضارة العربية الإسلامية، كما يفيد تمييز محمد عابد الجابري (1984)، حينما كان الفقيه فيلسوفا ولغويا ومؤرخا وطبيبا ممارسا، إلى غير ذلك من الاهتمامات المعرفية التي كان الفقيه يضطلع بها. إن عبد الله العروي هو كل ذلك. سمته البارزة موسوعيته وثقافته التي لا تقيم أسوارا بين التخصصات المعرفية ولا تؤمن بالقصرية الضيقة ولا بالانكفاء السلبي على الذات.

كتاب "مجلد تاريخ المغرب" الذي كتبه العروبي سنة 1970 ثمره هذه الثقافة الموسوعية، ورغبة في إعادة قراءة التاريخ المغربي من منظور جديد مفارق للنمط التقليدي المكرور الذي لم يصف شيئا ذا بال باعتقاد العروبي إلى الدراسات التاريخية لبلدان شمال إفريقيا بالنظر إلى واقعها الحالي المتأزم على كافة الصعد.

الكتاب وكما يدل على ذلك عنوانه، محاولة رائدة وريادية لتدوين تاريخ شمالي لبلدان شمال إفريقيا الثلاثة تونس والجزائر والمغرب، تاريخ ليس الغرض منه السرد المتواتر للأحداث والوقائع، فهذه مهمة أضحت مبتذلة لكثرة ما تم القيام بها من طرف المؤرخين ودارسي التاريخ والطلبة الباحثين. إضافة العروبي النوعية هي كونه كتب تاريخ هذه البلدان الثلاثة المتجاورة ليؤكد من جهة على ارتباطها الجغرافي والثقافي والحضاري، وليقطع الطريق على المشروع الاستعماري الذي كانت سياسته التفرقية أساس وجوده وهي سياسة خلفت آثارا لا تزال شعوب المنطقة تعاني منها. يقول العروبي متحدثا عن مشروع الكتاب "أذكر أن مشروع كتابة تاريخ عام لبلاد المغرب كان في حد ذاته رهانا على المستقبل" (المجلد، ص. 230). كلمة "الرهان" التي استعملها العروبي تشير إلى حجم التحديات الكبرى التي واجهت الكاتب أثناء التدوين، تحديات معرفية وتاريخية وحضارية لم تفقد بعد رهنيتها على الرغم من مرور عقد ونيف على إنتاج الكتاب.

المستقبل الذي تطلع إليه العروبي أوائل السبعينيات طمح إلى توحيد شعوب المنطقة على غرار الأمم الراقية الموحدة ثقافيا وسياسيا منذ عقود خلت. لا ينفك العروبي يبدي تدمره من الوطنيات القطرية الضيقة المسدودة الأفق التي تقف حجر عثرة أمام هذا المشروع الضخم الذي أسس له، وهو مشروع كتابة تاريخ المنطقة كوحدة. يقابل هذا المشروع الحدائي الضخم تواريخ مختزلة، مبتسرة وقصيرة النظر، حول هذا القطر أو ذلك، ما ينم عن غياب شبه كلي للوعي التاريخي. غياب هذا الوعي التاريخي عند غالبية مؤرخي المنطقة الذين لم تراوهم فكرة كتابة تاريخ شمالي للمغرب يفوت عليهم فرصة استدراك ما فات وإنجاز إقلاع حدائي حقيقي للشعوب.

أهداف البحث

يمكن تسطير أهداف هذا البحث كما يلي:

1. تقديم كتاب المجلد في تاريخ المغرب للقارئ العربي
2. استجلاء أهم أطروحات الكاتب بخصوص الكتابة التاريخية حول دول المغرب العربي
3. ربط أفكار الكاتب بأطروحاته الفلسفية
4. شرح الرؤية النقدية للكاتب والمنهج التاريخي البديل الذي يراه الأنسب لفهم أعمق لماضي وحاضر ومستقبل الدول المغربية.

أهمية البحث:

تستمد الدراسة الحالية أهميتها من خلال تقديم قراءة نقدية تحليلية لكتاب يعد فريدا من نوعه من حيث مبحثه ومقارنته الرائدة والجريئة لدراسة تاريخ دول المغرب العربي من منظور تاريخاني لا يزال جديدا وغير مألوف في كتب التاريخ التي تم تدوينها حول المنطقة. يقدم البحث أيضا خلعة لمفاهيم ومعتقدات كانت في عداد المسلم بها قبل صدور الكتاب الذي أحدث ثورة فكرية لا يزال صداها يتردد حتى اليوم.

1. مفهوم الوعي التاريخي والوعي السياسي

كتابة تاريخ شمولي لبلدان المغرب العربي نابع من الوعي التاريخي باشتراك هذه البلدان في وحدة المصير بالنظر الى أنها على حد العروبي خضعت الى نفس الأساليب الاستعمارية من غزو اقتصادي انتهى بالاحتلال الفعلي مع فوارق شكلية لا معنى لها.

يقرن عبد الله العروبي الوعي التاريخي بالوعي السياسي فهما في عرفه أمران متلازمان لا وجود لأحدهما دون الآخر. فالوعي التاريخي بظروف نشأة وتطور هذه البلدان مع ما يستتبع ذلك من تجرد وهم معرفيين يكون الغرض منهما ليس إنكفاء النزعات القبلية أو العشائرية أو القطرية، أو انحيازاً إلى طرف دون الآخر، بل صياغة تاريخ كان في معظمه، إن لم يكن في كليته، مشتركاً ومتازاً و متماثلاً. إن تأسيس وعي تاريخي لدى المؤرخين المغاربة يفضي إلى بناء وعي سياسي يعيد الاتصال بين الدولة والمجتمع في ظل واقع لا يزال الانفصال بين هذين المكونين هو السمة الغالبة.

2. القطيعة بين الدولة والمجتمع

اقتران الوعي التاريخي بالوعي السياسي عند العروبي وترجمة هذا الأخير بإعادة اللحمة بين الدولة والمجتمع يكاد يكون قطب الرحي في كتاباته. إذ أن القطيعة بين هذين المستويين، بنظره، هو السبب الرئيسي في التخلف الحضاري الذي تعاني منه شعوب المنطقة على اعتبار أن هذه القطيعة توفر التربة الخصبة التي تغذي الفساد وتساعد على تقويته واستشرائه حين يتعذر محاسبة السلطة الحاكمة وحين تضي ستار القداسة على ما يتصل بأمر الناس الدنيوية ويتعذر عليهم الخوض فيها. اضعاف صفة القداسة على الفعل السياسي وعلى الدولة، يخرج هذه الدولة وهذا الشعب من نطاق التاريخ الذي هو أيضاً مرادف لمفهوم العقل عند العروبي. تصبح الدول حينها كائنات لا تاريخية ولا عقلية بالدرجة نفسها.

يحلينا هذا على مفهوم التاريخ عند عبد الله العروبي، وهو مفهوم طرحه استبقاوي في كتاب المجلد وقام بتطويره وتوضيحه أكثر في إصداراته اللاحقة. التاريخ يحكمه عقل وتحكمه صيرورة عقلية تنجح دائماً الى التقدم نحو الامام، نصبح خارج التاريخ ان لم نستوعبها.

3. التاريخ كبنية ونسق مقابل تاريخ السلاطين

إن الحاضر بنظر العروبي هو مجموع بنى متوارثة تجعل الرجوع إلى الماضي حتمية معرفية للتمكن من فهم الحاضر فهما صحيحاً. وخلافاً لتاريخ التقليدي الذي يعتبر التاريخ تاريخ أفراد ووقائع، يحاج العروبي بأن التاريخ نسق معرفي يعنى بالبنية والوحدة الشاملة اللتين يمتد تأثيرهما إلى الأجيال اللاحقة، وهو تأثير لا ينتهي بموت سلطان أو انتهاء غزو أو تحرر من احتلال. يقول العروبي في هذا الصدد: " إن البنى الموروثة تؤثر فينا وإن الأجيال الماضية حاضرة بيننا. كل يوم يزداد شعورنا بضرورة استنطاق الماضي عن الظاهرتين اللتين تظللان حياتنا السياسية والفكرية والتخلف التاريخي، واستدراكه الواعي، أي التغيير" المجلد (، ص. 30). في موضع ما في الكتاب يتحدث العروبي عن ذهنية المخزن الذي كان يعامل الأوروبيين على أنهم أفراد ذوو أطماع شخصية في حين أن الغزو الأوروبي آنذاك كان ممنهجاً ونسقاً مستنداً لا على أهواء الأشخاص بل على بنيات مترسخة اقتصادية وسياسية واجتماعية، ما أنبأ عن غياب كامل للوعي التاريخي لدى المغاربة في تلك الآونة.

يشير العروى إلى أن الاستعمار جند كل طاقاته لإحداث هذه الهوة بين الدولة والمجتمع، حتى سهل عليه التغلغل إلى خلايا هذا المجتمع وتدمير بنياته ونسيجه الضام، واتخذ الاستعمار لتحقيق ذلك خطوات ابتدأت بالتدخل الاقتصادي وانتهت بالاحتلال الفعلي لبلدان المنطقة. هذه الاستراتيجية الاستعمارية كما يوضح الكاتب، كانت تتكرر في كل مرة ومع كل بلد من البلدان الثلاثة مع فوارق شكلية لا أهمية لها.

إن أهمية الاقتصاد في الفترة الاستعمارية والتحويلات التي أحدثتها في ميزان القوة الدولي جعلت العروى يعتمد في التحقيب الذي انتهجه في مقاربتة لموضوعه التاريخي. مرد ذلك هو رغبة العروى التي تلح عليه كمؤرخ أن يتوخى الحياد والموضوعية ولا يتأتى هذا، بحسبه، إلا باختيار حقب تاريخية شهدت تحولات اقتصادية جذرية شكلت قطيعة مع ما سبقها من فترات تاريخية. كل الاعتبارات الأخرى المنبثقة من مفاهيم أدبية وعقائدية أو إيديولوجية، كالوطنية مثلا، يجمل بالمؤرخ المحترف التنزه عنها.

4. تاريخ المغرب بين التأليف الاستعماري والتأليف الوطني

يميز العروى بين نوعين من التأريخ الذين جعلنا من المغرب مادة لهما وموضوعا، هما التأليف الاستعماري والتأليف الوطني. كلا التأليفين بنظر العروى قاصران عن إنجاز المشروع الذي يطمح إليه. فالتأليف الاستعماري غارق في الذاتية يحفل أيما احتفال بأخبار المعمرين الأوروبيين من دبلوماسيين وقواد عسكريين وتجار وغيرهم، حيث إن نشاط هؤلاء خلف أكواما من الوثائق المحفوظة التي يعتبر المؤرخ الاستعماري أنها وحدها الجديرة بالبحث والتدقيق. وأما تاريخ المغاربة الاجتماعي والسياسي وتدايات الاستعمار على حياتهم اليومية فهذا مجال خارج تماما عن اهتمامات المؤرخين الاستعماريين، وظل منظورا إليه على أنه دون مستوى الدرس.

على الضفة الأخرى يبرز التأليف الوطني الذي يحاج العروى بأنه هو الآخر لم يسلم من مزايدات عاطفية وقومية وقطرية أفسدت على المؤرخ الوطني أداء مهمته على الوجه المطلوب. والنتيجة أن أتت معظم كتابات المؤرخين الوطنيين انعكاسا لإيديولوجيا تهم ومواقفهم ووجهات نظرهم الخاصة. بناء على ما سبق، يتضح بجلاء أن اختيار العروى للعامل الاقتصادي أتى في إطار توخي الحياد والموضوعية، وتجنب السقوط في فخ التحيز لهذا الطرف أو ذاك. يقول العروى في هذا المعنى: "كيف نبرر اختيارنا؟ نكتفي بالإشارة إلى إن عهد الاستعمار لا يمكن أن يكتب موضوعيا إلا في إطار الاقتصاد العالمي بمعنى أن المؤثر الأول والأساس في حياة المستعمر والمستعم هو منطق السوق الدولية." (المجلد، ص. 526)

هل نستشف من هذا جنوحا من العروى نحو الماركسية؟ نحو تفسير ظاهرة الاستعمار على ضوء البنية التحتية للمغاربة؟ في غير ما موضع في كتاباته المتعددة وفي محاضراته الأكاديمية، يؤكد العروى على أهمية النظر في الأحداث والوقائع وعدم الاكتفاء بالأقوال والتصريحات والتنظيرات. فالتاريخ، في ملة العروى واعتقاده، حاضر بالقوة وبالفعل، بمعنى ليس بالقوة فقط. في قراءة عبد الإله بلقزيز لعبد الله العروى حول مفهوم العقل، نلمس تسليط الضوء على هذه النقطة من فكر الرجل و احتراز هذا الأخير من الفلسفات التنظيرية الكلامية التي لا ترقى إلى أفعال ملموسة على أرض الواقع⁵. فمقاربة العروى لمفهوم العقل عند العرب المسلمين مرتبط ارتباطا وثيقا بعدم مبارحة هذا العقل المسلم لحدود التنظير المطلق وغيابه بشكل مأساوي في واقعهم اليومي المعيش. هذه المفارقة هي التي حدثت به إلى اعتماد الاقتصاد كمرجع إبستيمولوجي عام لفهم سيرورة الاستعمار،

وهو اختيار كما قلنا لا علاقة له بانتماءات فلسفية مقولبة جاهزة، وإنما باهتمام العروبي بالاتساق المطلوب بين العقل كمقولة مطلقة مجردة والعقل كفعل وإجراء يوميين، أو بعبارة العروبي نفسه، "عقل الاسم" و "عقل الفعل"⁶. هذا الاتساق الغائب تماما في المجتمعات العربية الإسلامية بين هذين المستويين العقليين جعل العروبي يتلمس عواقب انحساره في حياة الناس الواقعية ونمط عيشهم، وفي المسكوت عنه في روايات الأعلام والسلطين.

يقدم لنا بلقزيز شهادته حول منهج العروبي المؤرخ، موضحا أن لهذه الطريقة في مقارنة مسائل العقل صلة بالموقع الذي يتحرك فيه كمفكر. يقول في هذا الصدد: "موقع المؤرخ، أي الباحث الذي عدته الأساس من الوقائع لا من الأفكار. وهذا موقع معرفي يعرض صاحبه، على الأغلب، عن التفكير في الماهيات تفكيراً نظرياً: فلسفياً تأملياً، لينصرف إلى التفكير في الظواهر المادية والعلاقات، بما هي وحدها الموضوعات التي يمكن إنتاج معرفة بها." (نقد العقل، ص. 28) تشديد العروبي على ما ينجز في الواقع، وحصره اهتمامه على التاريخ الذي لم يكتب بعد حول المغرب يروم استنقاذ هذه المنطقة من مما يسميه بـ "القفص" الذي احتجزه فيه كل من التأليفان الاستعماري والوطني المحكومان كلاهما بضيق الأفق وبخدمة أهداف مرسومة سلفاً. إن رؤية العروبي رؤية مستقبلية استشرافية ترمي إلى أبعد من جرد الوثائق وتحقيقها وسرد الأحداث في متواليات زمنية مكرورة. لقد انتهج هذا المؤرخ في قراءته لتاريخ المنطقة منهجاً مستوحى من التوجه الحديث للتاريخ الذي لم يعد يولي الوثائق في حد ذاتها، وما تنبئ عنه من أخبار الأعيان والسلطين والأحداث، عظيم أهمية. يتحدث العروبي بإعجاب كبير عن حوليات فرناند برودل ولوسيان لوفافر ومارك بلوك الذين وسعوا مفهوم التاريخ ليشمل مجالات معرفية أخرى قد تتموضع خارج إطاره المرجعي الابدستيمولوجي إلا أنها مرتبطة به ارتباطاً عضوياً. دعاة هذا التاريخ الشامل لا يتوقفون عند حدود جرد الوثائق وتحقيقها ووصفها، بل يتجاوزون هذا المستوى، أو ما يسميه العروبي "السطح" إلى توسيع مفهوم التاريخ بتطعيمه بإنجازات علوم أخرى كاللسانيات والجغرافيا والأنثروبولوجيا والاثنولوجيا وغيرها من العلوم التي لم يعد من الممكن إغفالها أثناء التعامل مع الوثيقة التاريخية. من خلال هذه المقاربة، ينتقل المؤرخ من تقديم تاريخ وصفي إخباري إلى كتابة تأليف حجاجي تأويلي نقدي. بعبارة أخرى، لم تعد "ماذا" تحتل موقعا مهما في صلب اهتمامات المؤرخ المعاصر ولكن «لماذا» وهذا هو صلب التاريخانية وهو المنهج التاريخي الذي بشر به العروبي وقدمه كبديل للكتابة التاريخية التقليدية التي طمست كثيرا من معالم تاريخ المنطقة المغاربية. يستهل العروبي كتابه بفصل عنونه بـ "ملاحظات حول تجديد التاريخ". اعتناء العروبي بتجديد التاريخ نابع من إيمانه العميق بأن في تجديد التاريخ انبعاتا للأمة، وشرطا أساسيا لسيرها في الطريق الصحيح المفضي إلى الإقلاع الحضاري الذي تنتشه المجتمعات. هنا تظهر ملامح المصلح في المؤرخ فلفظة التجديد توحى بأن هناك تراثا قديما مهترئا فقد صلاحيته، ولم يعد يستجيب لمطالبات الظروف الأنية. هذا التراث التاريخي حول المغرب، والذي في عرفه، أضحى متجاوزا، ينقسم إلى قسمين: التاريخ العربي الإسلامي وتأليف القرن التاسع عشر. يعتمد الأول على الواقعة أو الحدث ويستشهد عليه بشاهدة/ وثيقة من نوع معين يتعامل معها بـ «عقلية نقدية نشبه في كثير من ملامحها الأسطورة التربوية» (المجمل، ص. 15). من وجهة نظر العروبي، يتميز التأليف العربي الإسلامي القديم بتواضع الرؤية المنهجية التي لم تتجاوز سرد الأحداث و توثيقها و الإخبار عن الأعلام و الأعيان و السلطين، و أما الوثائق فكانت محدودة أيضا، مكتوبة و غير مكتوبة.

أتى تأليف القرن التاسع عشر ليوسع من مفهوم الوثيقة التي لم تعد تعنى فقط بالمكتوب بل امتدت لتشمل الحفريات والروايات الشفوية.

فضلا عن ذلك، جرى تعديل على مفهوم الزمن الذي لم يعد يرادف حقبة بعينها بل " مجموع المؤسسات التي تجسد السلطة العليا" (المجلد، ص.15) إنه قد يمر زمن طويل والبنى لا تزال على حالها. هذا المفهوم الجديد للتأليف غذته فكرة التقدم المستتقة من فلسفة الأنوار الأوروبية التي ترى بأن التاريخ نزوع مستمر لا تراجع فيه نحو الارتقاء، وأن الحضارة الأوروبية، تبعا لذلك، هي أقصى ما يمكن للإنسان أن يصل إليه من تقدم وكل الأمم، بالقياس إليها بربرية ومتخلفة.

إن معظم ما كتب حول تاريخ المغرب كان بأقلام المؤرخين الأوروبيين الذين ينزعون هذا النزوع وينحون هذا المنحى في الكتابة التاريخية ليأتي التأليف الاستعماري مليئا بالأحكام السلبيّة المبنية على مفاهيم مسبقة وإسقاطات منهجية أساءت إلى تاريخ المغرب إساءة كبيرة وشوهت العديد من المفاهيم حول هذا التاريخ، فالمنطلقات المنهجية والجهاز المفاهيمي الذي استند إليه المؤرخون الأوروبيون منفصلان انفصالا سكينزوفرينيا مقلقا عن واقع المجتمعات المغربية. مثال على ذلك هو مصطلح "الدولة" الذي فرض قسرا على مجتمع لم يطور بعد هذا المفهوم. أضف إلى ذلك مصطلحي "بلاد المخزن" و "بلاد السبيبة" الذين شكلا الثنائية الأكثر بروزا في كتابات المؤرخين الأوروبيين. الاستعمال العشوائي لهذه المصطلحات دون تكلف مشقة التثبت من صحتها بإحالتها على السيرورة التاريخية للمجتمعات المعنية عمل لا يحترم قواعد البحث التاريخي وليس من العلمية في شيء. يحيلنا هذا إلى مشكل " التعريف" الذي تحدث عنه العروبي، لاحقا، في كتابه الفريد "مفهوم التاريخ"، والذي يتلخص في أن التعاريف التي استخدمها المؤرخون الأوروبيون في كتاباتهم التاريخية حول المغرب تعاريف مفارقة لزمان ومكان المغرب ومجتمعاته وبهذا تصبح إسقاطات لا معرفية، إيديولوجية في عمقها، وبذلك تفقد كثيرا من الوثوقية.

5. المنهج التاريخي كبدل

البديل الذي يدافع عنه العروبي والذي يشكل أحدث ما وصل إليه التاريخ الغربي زمن تدوينه لكتاب المجمل هو التاريخانية. لا يكتفي المؤرخ بالوصف التقليدي للأحداث، بل يتجاوزها إلى التفكير والتحليل والتركيب والتألف في آخر المطاف. وفيما يرى المؤرخ التقليدي أن الحدث واقع ملموس، يؤمن المؤرخ المعاصر أن الحدث ليس بهذه البساطة والسذاجة. الحدث عند المؤرخ المعاصر "مركب نظري قام هو بتأليفه تبعا لهما، التي هي هموم عصره وتساؤلاته ومنهاجه" (المجلد، ص. 19). (بعبارة أخرى، الحدث التاريخي ليس مادة خاما معزولة عن سياقها المعرفي وعن البناء الاستيمولوجي الذي يحد كافة أطرافها، بل محصلة اهتمامات المؤرخ وانهماكه المعرفي الذي يجعل من بعض الأحداث بؤرة تحولات و يلقي بأخرى في سلة المهملات. إن الحدث عند المؤرخ المعاصر يتجاوز حدود الوثيقة لأنه نتاج تحليل الوثيقة على ضوء معطيات أخرى مستتقة من مجالات معرفية مغايرة، كاللسانيات مثلا أو الأركيولوجيا أو علم الاجتماع أو غيرها من العلوم الإنسانية والطبيعية كما أسلفنا القول.

يؤكد العروبي على أن تبني التاريخانية يستلزم ذهنية معينة تنجز قطيعة تامة مع ذهنية القرن التاسع عشر، وبدرجة أكبر مع ذهنية التاريخ العربي الإسلامي القديم، التي لا تتجاوز حدود استيعاب مضمون الوثيقة ولا تطمح إلى أبعد من ذلك. تشديد العروبي على الذهنية التاريخانية لدى المؤرخ مرتبط بإيمانه الراسخ بأن التغيير والتجديد في التاريخ للمغرب رهين بتغيير الذهنيات وانفتاح العقلية. فلا معنى، حسب الكاتب،

لأن نستعير مفهوما غربيا كالتاريخانية لنسقطه بكل عشوائية على مجتمع لا يعيش هذه التاريخانية في حياته اليومية وفي فلسفة وجوده. استعارة مفهوم التاريخانية دون تمثل محتواه وبمعزل عن الذهنية التي أنتجته لا يعدو أن يكون تقليدا أجوف فارغا يعجز عن الإتيان بالتجديد المطلوب. في هذا المعنى يقول العروي " لا يتميز مفهوم التاريخ إلا إذا انحاز إلى الوعي وحل كله فيه... ولا يكتسب المجتمع التقليدي فكرة التاريخ إلا في إطار الدعوة التاريخانية، إلا إذا تجاوز التغيير مستوى المناهج ليشمل الفلسفة والتجربة الوجدانية. لا يكفي أن يقلد المجتمع التقليدي منهج توكيد أو ابن خلدون أو ماركس أو فرويد... لأن في ذلك مجرد إبدال تقليد بأخر، بل يجب أن يمر هو نفسه بتجربة هؤلاء جميعا، ويكتشف بدوره كشفهم الأساسي" (مفهوم التاريخ، ص. 404) يحيلنا هذا مرة أخرى إلى المفارقة التي يمجه العروي المتمثلة في التنظير مقابل الواقع.

التاريخانية تتعدى الوصف التقليدي للوثيقة لترقى إلى مستوى أكثر تعقيدا وهو النقد، والنقد عند المؤرخ المعاصر " ليس... هو الفهم والتحقيق، المقارنة والترتيب. النقد عنده داخل في ابستمولوجيا عامة، تعنى بجدل الناظر والمنظور، في أي علم وعلى أي مستوى. لا يكتفي المؤرخ بالقول هذه وثيقة مزورة، بل يقول للتروير دلالة وللوثيقة المزورة قيمة مثل، وإن كانت غير، قيمة الوثيقة الصحيحة، النقد لديه نقد وانتقاد" (المجمل، ص. 17).

تأسيسا على ما سبق، يتضح أن كتابة العروي وفاء خالص بما تعهد به وناقح عنه، وهو انعكاس لتوجهه الفكري والمعرفي بخصوص التاريخ وعلاقة تجديد هذا التاريخ بإحداث الطفرة المنشودة في مجتمعات شمال إفريقيا قيد الدرس. الكتاب كذلك انعكاس للتوجه الإصلاحية للعروي الذي يرى بأن بلورة وعي تاريخي شرط أساسي وضرورة حضارية بدونها لن يكون هناك نهضة ولا حداثة ترفع هذه الشعوب وتحولها إلى شعوب فاعلة تاريخيا وحضاريا.

لقد دافع العروي عن أطروحة شمولية التاريخ فكتب "مجملا" لتاريخ المغرب اعتبر فيه إن بلدان تونس والجزائر والمغرب الأقصى يمكن مقاربتها من خلال مفهوم الوحدة، وهي، كما أبان عن ذلك الكتاب بكل وضوح، وحدة تملك تاريخا مشتركا لم يستطع المؤرخون حتى الآن التعبير عنه بالشجاعة والوضوح اللازمين. لم يفت العروي أن يتهم المؤرخين المغاربة ب "الكسل الفكري" كونهم لم يستفيدوا من انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية ولم يستطيعوا إنتاج تاريخ مواز لهذا الحدث التاريخي الهائل الذي كان من المفروض أن يغير نظرتهم إلى الأشياء ويحدث زلزالا معرفيا يجعلهم يعيدون ترتيب أرقامهم ويواكبون التغيير. ما حدث كان غير ذلك. لقد واصل أغلب المؤرخين المغاربة على نفس نهج التأليف الاستعماري كما يشهد بذلك العروي، حين عاب على المؤرخين المغاربة استعارتهم لأدوات اشتغال تنتمي إلى القرن التاسع عشر، مع ما رافق ذلك من فشل ذريع في إنتاج وعي تاريخي خاص.

يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء. يصب الجزء الأول في أحوال المغرب من عهد التبعية كما يسميه العروي إلى وسط القرن الثامن الميلادي حيث " المغرب يعيد استقلاله" على حد تعبير الكاتب أيضا. الفكرة الأساس في هذا الجزء هي انتقال المغرب من " حضارة رومانية هرمة إلى حضارة إسلامية فتيحة" (ص. 130) وإغفال المؤرخين الاستعماريين، خصوصا غوتيه، لهذه الحقيقة التاريخية وتعدهم إظهار الأسف على الحضارة الرومانية التي لم يستفد منها المغرب. في الجزء الثاني الذي يفتتحه الكاتب بعنوان " المغرب في عهد الوحدة والسطوة إلى أواسط القرن 14"، يعرض فيه لتعمد الرواية التقليدية الاستعمارية الخلط بين العرب والأعراب، البدو الرحل الذين اتسموا بالتحزيب والنهب، وقيام التأليف الاستعماري بإساءة قراءة ابن خلدون الذي يميز بين العرب والأعراب.

في هذا الجزء يتحدث العروبي عن الوحدة المغربية التي تحققت فعليا إبان فترة الموحدين والمرابطين قبلهم كما يعرض للثمن الباهظ لهذه الوحدة حين توسعت الإمبراطورية وشملت الأندلس لتنفصل الدولة تدريجيا عن المجتمع وتسلق طريق الانهيار. يثير العروبي الانتباه إلى المفهوم الملتبس للإمبراطورية حينما ترد في كتابات المؤلفين الأوروبيين، ذلك أن المغرب ما شهد قط إمبراطورية بالمعنى الغربي للكلمة. فالمساحة الشاسعة للمغرب في هذا العهد لم تكن تسمح إلا بخضوع فعلي محدود لمناطق معينة بسبب موقعها الجغرافي القريب من مركز الدولة، وأما المناطق البعيدة فتدين بولاء غالبا ما يكون روحيا بسبب البيعة. الجزء الثالث يفتح بفصل عنوانه "مغرب التوازن والركود" حيث يعرض الكاتب للفترة التي تلت معركة وادي المخازن والتي رافقها تدهور وانحطاط وفرص مهدورة لبناء بنية سياسية واجتماعية وثقافية كفيلا بصد وردع الاستهداف المسيحي للمنطقة. يصف العروبي العدوان الأوروبي على المغرب بأنه حملة صليبية مدروسة ومدعومة ومخطط لها، خلافا للرواية التي تقول إن المغاربة ردوا بجهاد ديني على ما تصوره غزوا اقتصاديا أوروبيا. الجهاد بتقدير العروبي كانت له أسبابه الموضوعية، إلا أنه كان جهادا لم يستكمل شروطه الحضارية ففشل فشلا ذريعا. الركود والانحطاط سهلا الغزو الاستعماري للمنطقة الذي تميز باستغلال بشع للمجتمعات المغربية وبضعف السلطة وانفصامها عن عموم الشعب. في الفصل الأخير المعنون بـ «الانبعاث»، يقوم العروبي، مستندا إلى نقده التحليلي والتأويلي للأحداث بصياغة تعليقات اجتماعية وفكرية وثقافية تمكن من استيعاب ما وقع خلال فترة الاستعمار.

يختتم عبد الله العروبي مشروعه الضخم بمحاولة لتقييم الفترة الاستعمارية التي ماتزال موضع خلاف شديد بين المؤرخين مركزا بالأساس على فكرة أن انفصال السلطة الحاكمة عن المجتمعات كان وراء معظم ما حل بالمنطقة من نكبات، زيادة على أن الإصلاحات التي تم استهدافها كانت تمس الجانب التقني المادي فحسب، ولم تكن تخاطب الجماهير العريضة من السكان، أو الرأسمال البشري لهذه الدول، فكان مصيرها الفشل.

خاتمة

عرضنا في هذا المقال قراءة لكتاب يعد فريدا من نوعه في تاريخ الكتابة التاريخية حول منطقة شمال إفريقيا. فرادته تتجلى في كونه يقدم تاريخا شمولا للمنطقة يستهدف الإحاطة بالدرس التاريخي لشمال إفريقيا من كافة جوانبه، عوضا عن المقاربات القطرية الضيقة الأفق التي سادت حتى زمن صدور الكتاب وبعده. هي قراءة من بين عدة قراءات أخرى ممكنة إذا نحن بقينا أوفياء لتاريخية عبد الله العروبي، وهي قراءة حاولنا أن نسلط فيها الضوء على الجوانب التي لاتزال تشكل عائقا أمام بلورة الوعي التاريخي الذي لا ينفك العروبي ينادي به عبر ثنايا الكتاب. حديث العروبي عن غياب الوعي التاريخي وما يستتبعه من غياب للوعي السياسي والاجتماعي لا يزال مشكلا قائما في هذه البلدان الثلاثة، وهو مشكل لم تستطع الدول حله على الرغم من مرور أكثر من أربعين سنة على صدور الكتاب، واتهامات العروبي للمؤرخين المغاربة وللسلطات الحاكمة لم تجد بعد ما يبرر سقوطها.

يرى الفيلسوف المغربي ببعد نظره ووعيه التاريخي الحي أنه لا يزال أمام العرب زمن طويل حتى ينخرطوا بكثافة وفعالية في إعادة قراءة التاريخ. هذه الفجوة الزمنية راجعة بالأساس إلى الهوية المعرفية الهائلة التي تفصل العرب عن الغرب وتقدم هؤلاء في مجالات الإنسانيات والعلوم الدقيقة وامتلاكهم للأدوات الإجرائية والمنهجية لمقاربة الدرس التاريخي، لخلخلة التاريخ وتفكيكه وإعادة تركيبه.

حسنة العروي، وصدقته الجارية، بتعبير الفقهاء، هي أنه قدم تشخيصا دقيقا لمشاكل هذه المنطقة وأقام الدليل بنظر المؤرخ الثاقب على فساد مقولات المؤرخ الاستعماري الذي كتب من وجهة نظر إيديولوجية تخدم مصالحه، وعلى الكسل الفكري للمؤرخ الوطني الذي إما أنه تبنى هذه المقولات بدون تبين ولا تمحيص، أو أنه رفضها وكتب تاريخا انطباعيا لا يخلو من المغالطات. هذا التشخيص لأمراض المؤرخين، إذا صح لنا القول، خطوة أولى نحو بناء وعي تاريخي لشعوب المنطقة، ولبنة أساسية من لبنات إنجاز حدثي يحقق الطفرة أو القطيعة مع ماض مليء بالخطايا لاستقبال غد أفضل يحقق مصالحه مع الذات ومع الآخر.

نتائج البحث:

يمكن تلخيص نتائج البحث في الآتي:

1. ضرورة مراجعة مجموعة من المفاهيم والحقائق التاريخية حول دول المغرب العربي على ضوء منهج تاريخاني لا تحده الوثيقة المكتوبة.
2. أهمية تفكيك المقولات التاريخية في التأليفين الأوربي والوطني واطهار تأثيرها السلبي على المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي لهذه الدول.
3. التشديد على القواسم المشتركة لدول المغرب العربي بدلا من الانسياق وراء الروايات الاستعمارية التفريقية التي تسببت في فشل الأنظمة السياسية في هذه البلدان ومعاناة شعوبها.
4. ضرورة النظر الى التاريخ كبنية ونسق لهما امتداد في الزمن.
5. أهمية انشاء وعي تاريخي لدى شعوب المنطقة يكون دعامة أساسا لاستيعاب الماضي التاريخي المشترك واستخلاص دروس تضمن اقلعا اقتصاديا وتقدما ورقيا لهذه الدول التي جنت عليها روايات تاريخية أفسدتها إيديولوجيا المصالح.

توصيات البحث:

1. كتاب المجلد هو تاريخ للتاريخ الذي كتب حول منطقة المغرب العربي وله بعد نقدي صريح وجريء مما يجعلني أفكر في أهمية اجراء دراسة مقارنة لمؤلفات هذا الكاتب الموسوعي لاستجلاء نقط الالتقاء ما بين كتاباته ما قد يمد الباحث بعدة أكثر ثراء لقراءة المجلد.
2. اعداد بحث جديد لقراءة المجلد عبر المنهج التاريخاني الذي يقدمه الكاتب كبديل للقراءات التقليدية السائدة.
3. اعداد دراسة مقارنة بين المجلد وما كتب من بحوث هستوريوغرافية حول المنطقة.
4. اجراء بحث لتقصي مفهوم الوعي التاريخي عند المغاربة من منظور عبد الله العروي.

المراجع

- بلقزيز، عبد الاله. 2014. نقد التراث بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- بلقزيز، عبد الاله. 2014. "نقد العقل المعقول: في مفهوم العقل عند عبد الله العروي." مجلة النهضة. العدد. 8.
- الجابري، محمد عابد. 1984. نقد العقل العربي. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- العروي، عبد الله. 2005. مفهوم التاريخ. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- العروج، عبد الله. 2014. مجمل تاريخ المغرب. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v3.33.10